الفصل الأول

مدخل جمالي إلى تصميم المواد البصرية

موضوعات الفصل

سيناقش هذا الفصل الموضوعات الآتية:

- أولًا: مفهوم الجمال.
- ثانيًا: إدراك الجمال.
- ثالثًا: الجمال والتعلم البصري.
- رابعًا: الجمال والتصميم البصري.

تمهيد

يميل الإنسان بطبعه إلى الجمال، وهو مفطورٌ على محبته والبحث عنه في كل مَن ومَا يمرُّ به في حياته اليومية.

شكل (1-1)

* صورة: غزالٌ يفرُّ بحياته، للمصور حازم فيلالي

* مصدر الصورة: http://on.natgeo.com/1apV0tm

انظر إلى الصورة في الشكل (1-1)، لا بد أنها تثير في نفسك مشاعرَ متباينة، وقد تدفعك إلى طرح أسئلة كثيرة؛ لكنك ستتفق مع آخرين على أنَّ فيها جمالًا آسرًا يحرك الوجدان في كل مرة تعود فيها لمشاهدتها، ولعلك تفكر في أن جمالها لا يأتي من عنصرٍ واحدٍ فيها، بل يفيض من كل عناصرها: الموضوع، واللون، والخلفية، وزاوية الالتقاط، والإضاءة، وغيرها من العناصر.

لكن ما الجمال الذي يأسرك في هذه الصورة؟ أهو أمرٌ حسيٌّ أم أمرٌ معنويٌّ أم كلاهما معًا؟ وكيف يُدرَك؟ وهل ثَمَّ معايير تضبطه ساعدتك على أن تصدر حكمك بجمال هذه الصورة؟ وبعد هذا كله ما الذي أتى بالحديث عن الجمال في كتاب يُعنَى بالتعلم والتصميم البصري؟

للإجابة عن كل تلك الأسئلة سيأخذك هذا الفصل في رحلة إلى عالم الجمال، تتناول مفهومه، وإدراكه، والعلاقة التي تربط التعلم والتصميم البصري به؛ وذلك تمهيدًا لموضوع هذا الكتاب الرئيس: تصميم المواد البصرية.

مفهوم الجَمَال

يتغنى الناسُ بالجمال منذ آلاف الأعوام، في نثرهم وشعرهم ومختلف أنواع الفنون التي عرفوها، ولا عجَب في ذلك؛ إذ يحيا الإنسان في كَوْنٍ خلقه الله عزَّ وجلَّ فأبدعَ خلقه، وأسبغَ عليه من ألوان الجمال ما لا يخفى على كلِّ ذي لبٍّ. وفي القرآن الكريم آيات بينات عديدة تشير إلى جمال الوجود، وتدعو إلى تأمله وتدبره، إذ يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل: 5-6)، ويقول تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل: 60)، بل حثَّ الله سبحانه وتعالى عباده على التزين والتجمل عند كلِّ صلاة، أي طوال اليوم، كما يتبيَّن في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: 31)، وغيرها من الآيات التي لا يتسع المجال لاستعراضها كلها.

نشاط: ابحث عن (5) آيات قرآنية تشير إلى صنع الله عزَّ وجلَّ البديع في الكون من حولك؛ ثم أورد تفسيرها موثقًا من أحد كتب التفسير.

ولا تغيب العناية بالجمال عن السنة النبوية المطهرة؛ إذ تزخر بعدد من الأحاديث التي تبيّن عناية الرسول ﷺ بالجمال المادي والمعنوي، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخلُ الجنَّة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْر، فقال رجلٌ: إنَّ الرجلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبه حسنًا، ونعله حسنًا؟ فقال: إن الله جميلٌ يُحبُّ الجمال؛ الكِبْر: بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ النَّاس» (رواه مسلم، موسوعة الحديث الشريف، 1434)، فكما يُنفِّر ﷺ في الحديث من الكِبْر الذي يعيب الخُلق، فإنه يؤكد أن تجمُّل الإنسان وتزيُّنه صورةٌ من صور الجمال التي يحبها الله عزَّ وجلَّ. ورُوِي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: «أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلًا شعثًا قد تفرق شعرُه، فقال: أمَا كانَ يجدُ هذا ما يُسَكِّنُ به شعرَه؟ ورأى رجلًا آخرَ وعليه ثيابٌ وَسِخَةٌ فقال: أمَا كان هذا يجدُ ماءً يغسلُ به ثوبَه؟» (رواه أبو داود، موسوعة الحديث الشريف، 1434). ورُوِي عن عنَّاد بن أوس أنه قال: «ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ قَالَ: إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ... إلخ» (رواه مسلم موسوعة الحديث الشريف، 1434)؛ وفيه شاهدٌ عظيمٌ على مبلغ عناية الإسلام بالجمال؛ فالإحسان لا يأتي إلا بخيرٍ وكلُّ خيرٍ جميلٌ.

لكن ما الجمال؟

الجمال لغةً: «مصدر الجَمِيل، والفعل جَمُل. والجَمَال الحُسن؛ يكون في الفعل والخَلْق. وقد جَمُل الرجُل، بالضم، جَمَالًا، فهو جَمِيل وجُمَال، بالتخفيف؛ وجُمَّال. والجُمَّال، بالضم والتشديد: أجمل من الجَمِيل. وجَمَّله أَي زَيَّنه. والتَّجَمُّل تَكَلُّف الجَمِيل. وامرأَة جَمْلاء وجَميلة: كَبدْرٍ طالع، بَزَّتِ الخَلْق جميعًا بالجَمَال؛ وفي حديث الإِسراءِ: ثم عَرَضَتْ له امرأَة حَسْناء جَمْلاء؛ أَي جَمِيلة مليحة. قال ابن الأَثير: والجَمَال يقع على الصُّوَر والمعاني» (ابن منظور، 1434).

أمَّا اصطلاحًا فقد تباينت تعريفات الجمال وفق تباين وجهات نظر واضعيها، وتباين تخصصاتهم. ولا غرابة في ذلك؛ فالظاهرة الجمالية ظاهرة نسبية متغيرة، يمكن تناولها من زوايا متعددة: فلسفية كانت أو نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو بيئية أو تعليمية أو غيرها. وليس مجال هذا الكتاب تتبع تلك التعريفات، وتحليلها، والمقارنة بينها؛ لذا، ستكتفي الكاتبة باستعراض عددٍ منها بغرض مساعدتك على الخروج بتصور واضح للمقصود بالجمال.

تلميح: يخلط الناس أحيانًا بين الجمال والفن، لذا لاحظ أن الجمال قيمة عظمى، وأن الفن هو طريقة الإنسان في التعبير عن إدراكه لهذه القيمة.

- فالجمال صفةٌ تعكس في نفس المتذوق ارتياحًا وسرورًا (العموش، 2006، 477).
- أو تجربة إيجابية ترتبط ارتباطًا قويًّا بالسعادة والرفاهة في حياة الإنسان (Ipsos, 2010, 4).
- أو تَنَاسُبُ الأجزاء فيما بينها وضمن الإطار الكلي للموضوع الجمالي، أو هو روعة الظاهرة المادية التي يمكن ملاحظتها بسهولة (Heisenberg, n. d.).
- وهو في أوضح صُوَرِه وأقربها إلى الذهن: سمةٌ في شخصٍ أو حيوانٍ أو مكانٍ أو شيءٍ أو فكرةٍ، يُدركها الإنسان باستمتاع ورضا (Oxford English Dictionary, 2013).

ومهما كان التعريف الذي يناسبك، فإن عليك أن تضع في حسابك أن الجمال والتعاطي معه تجربة ذاتية في معظمها، تحكمها معرفتك وميولك وخبرتك السابقة، والبيئة التي تعيش فيها، وغير ذلك من العوامل.

إدراك الجَمَال

يدرك الإنسان الجمال بحواسه؛ لكن ذلك لا يعني أن الجمال أمر حسيٌّ فحسب، بل هو أمر حسيٌّ ومعنوي، تشترك في إدراكه الحواس والعقل والوجدان معًا، ويسير إدراكه في مسارين (الشامي، 1988، 178–181):

- **أولهما:** مسار أفقي، يتجه إلى الظواهر والأشكال، ويتميز بسرعته لاعتماده على الحواس في ذلك. ويعد هذا المسار أساسيًّا؛ لأنه القاعدة التي يُبنَى عليها إدراك الجمال، كما أنه– في الحد الأدنى منه– قدرٌ مشترك بين جميع الناس، ويمكن أن يُسمى بإدراك الجمال الحسيِّ.
- **وآخرهما:** مسار عمودي يتجه إلى القيم والمعاني، وهو إدراك تراكمي، ينمو بالتدريب والممارسة حتى يصبحَ مَلَكَةً ثابتةً، وجزءًا من أي عملية إدراك، ويَتكونَ لدى صاحبه حسٌّ جماليٌّ أو ذوقٌ جماليٌّ؛ يمّكنه من خلاله إدراك الجمال وتمييزه مباشرة حيث كان.

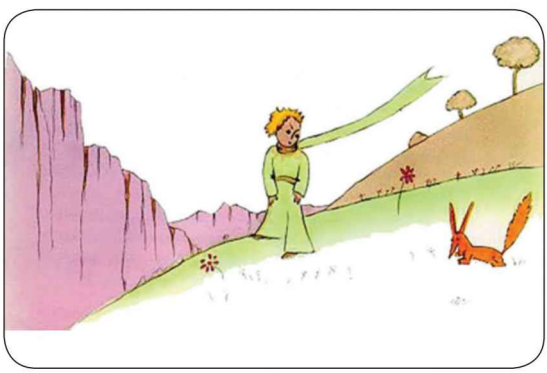

شكل (2–1)

* لوحة مأخوذة من الفصل رقم (21) من رواية: الأمير الصغير، لـ: أنطوان دي سانت إكسوبيري (The Little Prince – Antoine de Saint–Exupery)

* مصدر اللوحة: http://bit.ly/1cp24WB

وكي تفهم المقصود بالمسارين أعلاه انظر– مثلًا– إلى اللوحة في الشكل (2 –1). إن الأمرَ الذي سيستوي في إدراكه كل من ينظر إليها جمالُها الحسيُّ، وأنها تتكون من خطوط وأشكال وألوان، لكن الناس ستتمايز في إدراك المعنى الجميل الذي تحمله وتذوقه، وسيتفوق في ذلك أولئك الذين أُتيحَت لهم قراءةُ رواية **الأمير الصغير** التي استُلّتْ منها هذه اللوحة، وعرفوا عمَّ يدور الحوار بين الأمير الصغير والثعلب.

الجمال والتعلم البصري

ليس من قبيل المبالغة القول إن الإنسان يحيا اليوم ضمن محيطٍ من الصور الذي يتبعه في كل مكان تقريبًا؛ من خلال لوحات الإعلانات التي تملأ الشوارع من حوله، أو الشاشات التلفازية في بيته، أو الهاتف المتنقل في يده. ويتطلب التعامل مع هذا الكم الكبير من الصور والرسوم قدرةً على فهمها أو قراءتها، ومن ثَمَّ استخدامها والتعلم منها، وهو ما يُعرَف بالتعلم البصري الذي سيناقشه الفصل الثالث من هذا الكتاب بالتفصيل. لكن، أين موقع الجمال من هذا؟

إن الخطوة الأولى لفهم المواد البصرية والتعلم منها تبدأ بتحديد جماليات تصميمها؛ إذ لا تنحصر تلك المواد في كونها رسومًا أو صورًا أو نصوصًا تلتقطها العين؛ بل هي كلٌّ متكاملٌ تنتظم عناصره لجذب انتباه المتلقي ومشاعره. كذلك فإن تصميم المواد البصرية يتطلب تحديد المعايير الجمالية، بل ومراجعة تلك المعايير وتعديلها للوصول إلى أجود مستوى ممكن.

وبينما يجادل بعض الخبراء في الدور الذي قد يؤديه جمال التصميم في التعلم، وأنه قد يكون غطاءً لصرف الانتباه عن ضعف المحتوى؛ فإن دراساتٍ أجريت أظهرتْ نتائجُها أن (45 %) من متصفحي المواقع اتخذوا قرارًا بدقة محتوياتها استنادًا إلى تصميمها وإلى مظهرها، وذلك في وقتٍ لم يتجاوز (3.42) ثانية. إن التصميم الجميل يؤثر في إدراك المتعلم للمعلومات، وتعلمها، والحكم على صدقها وسهولتها، وتقييمها. والتوازن بين المحتوى النافع والتصميم الجميل يجعله ذا قيمة أكبر (Nielsen, 1994; Fogg et al., 2003; Batiha et al., 2006; Alsudani & Casey, 2009; Lynch, 2009; Zhang, 2009, David, 2010).

كذلك أكدت دراسات أخرى ارتباط التعلم البصري بالجمال، منها على سبيل المثال دراسة هانكوك (Hancock, 2004)، التي عُنيَت بتحديد مجموعة من المعايير الجمالية للمقررات الإلكترونية واختبارها، منها: المحاذاة، واستخدام الصور والرسوم، واختيار الألوان، وأنماط الخطوط وأحجامها. وقد أشارت النتائج إلى تفوق المجموعة التجريبية التي درست مقررات إلكترونية صُمِّمت وفق المعايير الجمالية المحددة؛ وتؤكد هذه النتائج أن جمال التصميم وجودة المحتوى يُعدَّان عاملين حاسمين في عملية التعلم.

لعل ما سبق قد وضَّحَ لك أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الجمال والتعلم البصري، وأن الأول منهما يمكن أن يدعم الأخير ويساعد عليه؛ فالعين تُقْبِل على الصورة الجميلة، وتتأمل التنظيم الجميل، بل وتبحث عنه. ولعلك لاحظت أنك وأنت تقرأ هذه الصفحة والصفحات السابقة- على سبيل المثال- مرَرْتَ بعددٍ من المثيرات البصرية التي لفتَتِ انتباهك ولو للحظات، كالرسوم

والألوان والخطوط وغير ذلك؛ فهل كانتِ الصفحات ستلفت انتباهك لو كانت خالية من الرسوم والصور والألوان التي تشرح المعنى وتؤكده؟

الجمال والتصميم البصري

لعلك تتساءل كذلك بعد قراءة ما سبق: ما علاقة الجمال بالتصميم البصري؟ وهل هما متلازمان أو يشترط تلازمهما؟ يرجع ذلك إلى طبيعة الإدراك البصري التي سيتناولها الفصل الثاني من هذا الكتاب بالتفصيل؛ إذ يعتمد الإدراك البصري على الاستثارة، فالعناصر الموجودة في العالم المرئي من حولك تنتج طاقةً كهرومغناطيسية تُحَدِّدُ درجةُ قوتها واستمرارها فاعليتَها؛ وكلما كانت قوية وصلتْ إلى المخ وخزَّنها (ميتالينوس، 2007، 83–84). وبناءً على ذلك يمكن القول إن التصميم الجميل قادر على استثارة إدراك المتلقي البصري إلى حدٍّ ما، ولفتِ انتباهه، ولكن متى يمكن أن يوصَفَ تصميمٌ ما بأنه جميل؟ إن ذلك يتطلب توافر العناصر الآتية (Ilinsky,2010, 1–13):

- **الحداثة (Novelty)**: ويُقصَد بذلك أن يوفرَ التصميم قدرًا من الحداثة- إضافةً إلى جماله- بدرجة يصل معها المتلقي إلى مستوىً جديدٍ من الفهم في كل مرة يراه فيها. وينبغي التأكيد هنا أن التصميم الذي يبهج متلقيه لا يفعل ذلك لأنه تصميمٌ حديثٌ فحسب؛ بل لأنه تصميمٌ مؤثرٌ تنبع حداثته من قدرته على أن يجعل المتلقي يستبصر الشيء أو الموضوع من زاوية جديدة. وقد يبدو تحقيق ذلك صعبًا في ضوء ميل الإنسان إلى ما يألفه، وارتباكه إزاء ما يخرج عن الأطر والمعايير والأسس التي تعود عليها، لكنه غير مستحيل. والفكرة الأساسية التي تستحق تأملك هنا أن استخدام الأطر والمعايير والأسس والأنماط المعتادة ليس عيبًا في حدِّ ذاته، لكن هذا الاستخدام قد يتحول مع الوقت إلى مُقَيِّدَاتٍ تحدُّ الإبداع.
- **الثراء المعلوماتي (Informative)**: فالمفتاح الأساسي لأي تصميم- بغض النظر عن جماله- أن يزود المتلقي بالمعلومات؛ أي المعرفة التي هي عصب الحياة اليوم، وهي العامل الأهم الذي يُقرر نجاح التصميم، ولذا يجب أن يقود عملية التصميم من بدايتها؛ إذ ما إن تتحدد الرسالة التي سيحملها التصميم حتى يتحدد شكل التصميم أو صيغته أو نمطه، ويتطلب ذلك فهمًا واضحًا للرسالة وأهدافها.
- **الكفاءة (Efficient)**: يتميز التصميم الجميل بوضوح هدفه ورسالته، أو بتوفره على منظور واضح لما يتضمنه من معلومات صُمِّمَ ليقدمها، دون أن يعني ذلك الميل إلى

التسطيح، أو حذف أي تعقيد ضروري فيها، ويعني ذلك أنه كلما قلَّ التشويش البصري (Visual noise) في التصميم سَهُلَ على المتلقي العثور على ما يرغب فيه من معلومات. ويزيد من كفاءة التصميم الجميل أيضًا عنايته بالتأكيد البصري للعناصر المهمة للفت انتباه المتلقي لها؛ وذلك **بتكبيرها**، أو ترقيمها (1)، أو **تمييزها بلون مختلف**، أو إحاطتها بدائرة ◯، أو سبقها بسهم ⟵، أو غير ذلك.

- **الجمالية (Aesthetic)**: تعد البنية البصرية للتصميم التي تتألف من: الشكل واللون والخط وغيرها، ضرورية، لكنها ليست العنصر الوحيد لضمان جماله. وهي عناصر يساعد استخدامُها بدقةٍ المتلقيَ على أن يُدركَ المعنى، ويلتقط العلاقات التي تربط عناصر الموضوع، ويستخلص استنتاجات مهمة عنه، إضافة إلى جذب انتباهه؛ مع مراعاة أن القاعدة الأساسية التي تحكم توظيفها هي: ما قلَّ ودلَّ (Less is usually more)؛ وأن الغرض الأول منها تسهيل الفهم؛ لأن التركيز عليها دون مراعاة بقية العناصر قد يؤثر في وضوح الرسالة، ويشوش ذهن المتلقي.

ملحوظة:
يُقصَد بالتشويش البصري هنا: تكدس التصميم بالرسوم أو الصور أو النصوص.

لكن؛ هل جمال التصميم شرطٌ أساسي؟ أيجب أن يكون التصميم جميلًا إضافة إلى وظيفيته (Functionality)؟ أم يمكن التغاضي عن الشرط الجمالي إذا كان الالتزام به يحدُّ من قيمته الوظيفية؟ تقدم الصناعة- خاصة صناعة الأجهزة- إجابة مقنعة عن هذه الأسئلة، إذ قد يُضحَّى بالشرط الجمالي في البداية، أو يُحقَّق عند حده الأدنى؛ لكن مرور الزمن وتنامي الخبرة يساعدان على تحقيق المعادلة بإنتاج أجهزة توافر لها الشرطان الجمالي والوظيفي معًا. ولعل واحدًا من شواهد ذلك صناعة الحواسيب المحمولة، وما طرأ عليها خلال ما يربو على عقدين، كما يُظْهِرُ الشكل (1- 3 أ وَ ب) أدنى هذا النص، والذي يمكنك أن تقارن من خلاله بين حاسوب آبل ماكنتوش المحمول المصنع في عام (1989م)، وذلك المصنوع في عام (2012م)؛ وتلمس الفرق الكبير بين الجهازين على مستوى جمال التصميم.

ملحوظة:
يُقصَد بالوظيفية هنا: قدرة التصميم على تحقيق الأهداف التي صُمِّمَ من أجلها.

شكل (3-1 أ)

* حاسوب آبل ماكنتوش المحمول .Apple Mac) (Laptop المصنع في عام (1989م)

* مصدر الصورة: http://bit.ly/1iatJiS

شكل (3-1 ب)

* حاسوب آبل ماكنتوش المحمول Apple) (MacBook Pro المصنع في عام (2012م)

* مصدر الصورة: http://bit.ly/1aEZFo3

خلاصة الفصل

بوصولك إلى هذه النقطة يتوقع أن تكون قادرًا على أن:

1. تُعرِّفَ الجمال بكلماتك الخاصة.
2. تكتب مقالًا موجزًا تستعرض فيه شواهد على عناية الإسلام بالجمال.
3. تناقش بتوسع مسارَي إدراك الجمال مع ضرب الأمثلة.
4. تجمع أمثلة عن مواد تعليمية (نصوص، رسوم، صور) تعتقد أنها جميلة ونافعة، مع تعداد ما تعلمته من كل واحد منها.
5. تُدلَّ من واقع خبرتك الشخصية على العلاقة التي تربط التصميم البصري بالجمال.

مفاهيم أساسية

- **الجمال:**

سمةٌ تبهج العقلَ والوجدان، وترتبط بخصائص منها الانسجام والصدق والأصالة.

- **التعلم البصري:**

التعلم من خلال النصوص والرسوم والصور على اختلاف أنواعها.

- **التصميم البصري:**

تصميم النصوص والرسوم والصور على اختلاف أنواعها وفق معايير معينة تساعد على تحقيق أهدافٍ تعليمية محددة سابقًا.

تَعَلَّمْتُ: